Scott McClellan
What Happened: Inside the Bush White House and Washington's Culture of Deception(*)
(New York: Public Affairs, 2008). xiv, 341 p.

ما حدث داخل البيت الأبيض في عهد بوش وثقافة الخداع لدى واشنطن

زياد حافظ(**)
باحث وأستاذ جامعي.

أثار كتاب ماكليلان اهتماماً بيّناً في واشنطن لدى صدوره للمرة الأولى في أوائل صيف العام ٢٠٠٨. فأسرار سكرتير البيت الأبيض، الصحافي السابق، حول سنواته الست في البيت الأبيض كنائب أول لسلفه آري فلايشر، ثم لاحقاً كناطق أول على مدى ثلاث سنوات (٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٦)؛ تشد اهتماماً كبيراً عند غير الملم بالميول السياسية الرئاسية الأمريكية لكنها تجذب اهتماماً أقل عند أي امرئ كان، وما يزال، يتتبع مشهد واشنطن عن كثب. غير أن مرد الاهتمام الذي أحدثه نشر الكتاب، هو وسائل الهجوم أو الدفاع التي وفرها لنقاد إدارة بوش، قديمها وجديدها.

في الواقع، يؤكد المؤلف، كواحد من «أهل البيت»، قابلية ثقافة الخداع للانتشار داخل الإدارة عامة، وفي البيت الأبيض خاصة. فمن أجل إدارة تعهدت أن تكون منفتحة وشفافة، وأن تنبذ الكتمان الذي ابتليت به إدارة كلينتون، قام البيت الأبيض في عهد بوش بـ «البناء على شكل من التعبير الفني الذي وطده البيت الأبيض في عهد كلينتون وارتفع به إلى مستوى أعلى» (ص ٣١١). وبالنسبة إلى ماكليلان، كانت المشكلة في عجز الرئيس بوش وفريقه من مستشاري سياسته، عن تحقيق الانتقال من مرحلة تجريد الحملات الانتخابية، إلى مرحلة ممارسة الحكم. وهو يذكر في الكتاب زعمه هذا مراراً وتكراراً، بوصفه العامل الرئيسي وراء ثقافة اللف والدوران والحيل الدعائية والخداع في آخر المطاف.

رغم أن العنوان الفرعي للكتاب يدور حول ثقافة الخداع، فإن بيان ماكليلان يذهب شوطاً أبعد في تناول نقطة عدم التعلم من أخطاء سنوات نيكسون في ما يتعلق بأمر تافه نوعاً ما، أي تسريب اسم فاليري بلايم (V. Plame) إلى وسائل الإعلام بصفتها مسؤولة سرية في وكالة الاستخبارات المركزية (CIA).

(*) نشرت هذه المراجعة باللغة الانكليزية في: *Contemporary Arab Affairs*, vol. 1, no. 4 (October 2008), pp. 649-651.

(**) البريد الإلكتروني: zhafez@gmail.com.

أما المعلومات حول أسلحة الدمار الشامل في العراق، واستغلال تلك المعلومات للحض على الحرب؛ فإن المؤلف لا يشكك فيها بالفعل، بقدر التشكيك في المماحكة في قضية بلايم. ولا يسع المرء سوى الشعور بأن البيت الأبيض كان يعلم بالضعف المتأصل الذي كان يعتري قضية غزو العراق وتغيير النظام فيه. لذا، كان لا بد من أن يصبح الخداع أداة سياسية لممارسة الحكم أو على الأقل لترويج سياسة مريبة. وليس في إمكان منوال الحملة الدائمة، الذي يبدو أن ماكليلان يعزو إليه غياب الانفتاح من جانب الإدارة، أن يفسر، في حد ذاته وبمفرده، ثقافة الخداع. لذا، لا بد من أن يكون الأمر هو أن الخلل الأساسي في السياسة التي دعت الضرورة إلى تطبيقها بأي ثمن، هو نفسه الذي كان يمكن أن يعلل الخداع. ويشير مطلعون آخرون على بواطن أمور البيت الأبيض، وكانوا قد نشروا «مذكراتهم»، مثل وزير الخزانة السابق بول أونيل[١] وأحد أساطين مكافحة الإرهاب، ريتشارد كلارك[٢]، إلى أنه كان هناك أجندة منذ اليوم الأول، إذا جاز التعبير، لغزو العراق. أما مأساة ١١/٩، فإنها ببساطة، منحت الإدارة العذر الذي كانت بحاجة إليه.

بدأ ماكليلان عمله كسكرتير صحافي في البيت الأبيض في سنة ٢٠٠٣، حين كانت قضية فاليري بلايم آخذة في الذيوع. ولمن قد لا يكون مطلعاً على الفضيحة، نقول إنها كانت تتعلق بتسريب اسمها إلى وسائل الإعلام، بصفتها مسؤولة سرية في وكالة الاستخبارات المركزية، ومتخصصة بأسلحة الدمار الشامل. وهذا بمثابة جريمة فدرالية وفقاً للقانون الأمريكي. وكان فضح أمرها وسيلة لمعاقبة زوجها السفير جوزف ويلسون، الذي كتب مقالة افتتاحية في **نيويورك تايمز** حوت انتقادات موجهة إلى زعم بوش أن العراق كان يشتري من النيجر مادة اليورانيوم من أجل برنامجه الذري. وقد أشار بوش في خطاب حال الاتحاد في مطلع العام ٢٠٠٣، إلى أن «الحكومة البريطانية [كانت قد] علمت أن صدام حسين جد مؤخراً في طلب كميات ذات مغزى من اليورانيوم من أفريقيا» (ص ٥). هنا قدر ماكليلان فأصاب في التقدير: «هذه الكلمات الست عشرة ستغدو جوهر الجدل الذي وجه إلى صدقية الرئيس وإدارته ضربة كادت تكون مميتة» (ص ٥).

إن الكتاب يدور في الواقع حول الفضيحة التي أثرت في صدقية البيت الأبيض والناطق باسمه، أكثر مما يدور حول القضايا والنقاشات (أو حول غياب ما يتعلق بها) المعنية بالحرب على العراق، أو حول قضايا أخرى مهمة. ولعل المرء كان يتوقع شيئاً يتعدى كتاباً يشرح بالتفصيل رغبة بوش في تغيير العالم ومع ذلك، فإننا لا نحصل إلا على تفكير مليّ متكرر في ثقافة الخداع، وفي سرعة انتشار منوال الحملة الدائمة بدلاً من ممارسة الحكم، الأمر الذي يبعث أحياناً على الإحساس بالضجر الشديد.

على الرغم من أن الكتاب هزيل بمحتواه، فإنه من ناحية أخرى صادق تماماً بخصوص الجو المحيط بالطريقة التي اتبعها البيت الأبيض في تدبر أمر فضيحة «بلايمغيت».

---

(١) Ron Suskind, *The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House, and the Education of Paul O'Neill* (New York: Simon and Schuster, 2004).

(٢) Richard A. Clarke, *Against All Enemies: Inside America's War on Terror* (New York: Free Press, 2004).

والهزال يكمن في التأييد غير النقدي الذي محضه ماكليلان لأفكار الرئيس بوش بشأن رغبته في تغيير العالم دون التفكير ملياً في مضامين تلك الرغبة. يقول ماكليلان، في موقع سابق من الكتاب، إنه «لم يجد تبريراً حقيقياً للارتياب في الحجة المؤيدة للحرب، ولم أجد أنا نفسي سبباً للارتياب فيها» (ص ٩). هذا القول لا يتفق مع تعليقاته اللاحقة:

«إن فكرة تحويل الشرق الأوسط بالإكراه ناقضت هذا التواضع الموعود [وعد أُطلق خلال الحملة باتباع سياسة خارجية «متواضعة»]، وسيكون من الصعب جداً على الرئيس وإدارته إقناع المواطنين بها. إنها تستثير جميع ضروب المجادلات التي قد لا يسهل الفوز فيها، والتي استحوذت الآن على مزيد من الاهتمام عقب غزو العراق» (ص ١٣٢).

يقر المؤلف بأن ليس عند الرئيس فضول فكري، وهذا لا يتطابق حقاً مع هدف إعادة هندسة الشرق الأوسط. ثم يمضي ليسأل بعد فوات الأوان:

«هل كان من الواقعية في شيء التفكير في تحويل بلد ذي نظام راسخ مثل العراق من حالة الطغيان إلى حالة الديمقراطية من خلال قوة عسكرية بالدرجة الأولى؟ هل كان الناس والمؤسسات المدنية في العراق على استعداد لتأييد حكم ذاتي؟ ما أنواع الوجود والتدخل العسكريين المطلوبة للحفاظ على الاستقرار خلال فترة انقلاب حكومي أو مدني؟ ما هو الدور الذي قد تقوم به الأصولية الإسلامية في النظام المشكَّل حديثاً؟ ماذا عن التوترات الإثنية والدينية القديمة والكامنة تحت السطح مباشرة؟ ... ليست الإجابات عن هذه الأسئلة ميسرة، وهي تقتضي تفكيراً عميقاً وتخطيطاً مدروساً» (ص ١٣٢).

لقد شق عليّ تماماً أن أكظم غيظي لدى قراءتي هذه السطور؛ فالعرب هم الذين على الطرف المتلقي لمثل هذه «المخططات الكبرى»، وقد مات أناس، وشُرد آخرون ودمرت ممتلكاتهم، وتُرك نسيج اجتماعي بكامله مزقاً. مع ذلك، يُضطر المرء ببساطة إلى تقبّل عدم مبالاة، إن لم يكن فظاظة، من هذا القبيل، في مثل هذا السلوك غير المسؤول. وماكليلان يُظهر تأييده لبوش حتى النهاية، وكان، على وجه العموم، موالياً له. والولاء، الذي هو سجية يقدرها بوش أكثر من أي شيء آخر، لن يلغي مصلحة هذا الأخير الشخصية. وقد أوذي ماكليلان بأكاذيب كبار مسؤولي البيت الأبيض من مثل كارل روف و«سكوتر» ليبي، لكنه يقر بصورة لبقة بأنه «سمح [لنفسه] بأن يُخدع من خلال تمريره كذبة دون أن يدري» (ص ٣). إنه يعتقد أن الرئيس خُدع أيضاً، وأنه «تورط في تضليله وهو لا يعلم» (ص ٣). وفي النهاية، كان تافهاً وهو يعرف ذلك.

يفشي ماكليلان بضع معلومات عن كبار مسؤولي البيت الأبيض. وهو يجل أندي كارد، رئيس موظفي البيت الأبيض، ويكن احتراماً كبيراً لكولن باول، الذي قدم دائماً «مشورة صريحة وبسيطة ومستندة إلى سنوات تجربته العسكرية وترؤسه السياسة الخارجية. يضاف إلى ذلك أنه لم يتردد قط في التعبير عن موقفه بوضوح» (ص ٢٤٢). من ناحية أخرى، تبدو كوندوليزا رايس انتهازية محترفة؛ وهي «لم تحد عن تفكير بوش، إن لم تكن تصوغ تفكيره في واقع الأمر»، إذ كانت تحسن قراءة أفكاره وتحسن ترجمة أفكاره ومشاعره وميوله إلى سياسة ملموسة» (ص ٢٤٣). ولا يقول ماكليلان الكثير عن وزير الدفاع رامسفيلد ونائب الرئيس تشيني، كما لو أنهما غير ذوي أهمية.

على العموم، يلقي ماكليلان باللائمة على

بوش ومستشاريه، لأنهم خلطوا بين «حملة دعائية والمستوى العالي من الصدق والنزاهة الضروريين جوهرياً وإلى حد بعيد لبناء دعم شعبي والحفاظ على هذا الدعم إبان فترة الحرب» (ص ٣١٢).

في الوقت الذي يبدي ماكليلان كرماً لدى حديثه عن روف وليبي اللذين كذبا عليه بوقاحة ودمرا سمعته، فإنه لا يقوى على إخفاء إحساسه بالإحباط. ومع ذلك، حرص على الاعتراف بدور روف في تعيينه في فريق بوش حين كان الأخير حاكماً لولاية تكساس، والاعتراف أيضاً بدهاء روف كاستراتيجي سياسي. رغم هذا، يستطيع المرء أن يشعر بالجرح الذي أثخنه به أولئك الذين كانوا في مراتب عليا على سلّم القيادة.

في الختام، هذا كتاب يسهل نسيانه، وهو لن يُذكر منه سوى تاريخ صدوره، يوم كانت شعبية بوش لدى الرأي العام الأمريكي في الدرك الأسفل □

صدر حديثاً

الاستراتيجية الروسية بعد الحرب الباردة
وانعكاساتها على المنطقة العربية

د. لمى مضر الأمارة

ترى الباحثة لمى مضر الأمارة أن الاستراتيجية الروسية بعد الحرب الباردة تمر بمرحلة تحوّل انتقالية، فهي ما تزال في مرحلة الصيرورة، وبالتالي تعاني تحديات جدية، داخلياً وخارجياً. تمخضت مرحلة التحول هذه فولّدت تحوّلات متوالية في الموقف السياسي، بدءاً من العام الأول الذي نشأت فيه روسيا الاتحادية بعد التفكك (١٩٩٢)، وصولاً إلى بداية القرن الحادي والعشرين، مع وجود آفاق استمرارية، لا تبدو نهايتها قريبة حتى الآن.

وقد رصدت الباحثة أبرز سمات الاستراتيجية الروسية تجاه المنطقة العربية، وهي الاستراتيجية التي اتسمت بالحيوية والمبادرات الإيجابية في الفترة التي تولى فيها بوتين الحكم، وذلك من خلال محاولات روسيا في عهده استمالة البلدان العربية في قضايا ذات اهتمام مشترك، وإبداء الرغبة في التوسط لحل الأزمات في المنطقة.

وتتساءل الباحثة عن مدى التزام الرئيس الجديد ديميتري مدفيديف بالنهج الذي اتبعه سلفه حيال الوطن العربي. وخصوصاً بعد أن أصبح الغرب على مشارف حدود روسيا الاتحادية في إثر احتلاله أفغانستان والعراق.

٤٦٢ صفحة

الثمن: ١٦ دولاراً

أو ما يعادلها